الثراء اللغوي والأسلوبي في القرآن الكريم

"سورة النمل أنموذجاً"

المدرس المساعد
حيدر عبد الحسين مير زوين

المدرس المساعد
مصعب مكي عبد

جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

الثراء اللغوي والأسلوبي في القرآن الكريم "سورة النمل أنموذجاً"

المدرس المساعد
حيدر عبد الحسين مير زوين

المدرس المساعد
مصعب مكي عبد

جامعـــــة الكوفـــــة ـ كليـــــة الآداب

المقدمة:ـ

إن المنهج الأسلوبي يعد واحدا من المناهج المهمة في تحليل النصوص، وأحد طرائق النقد الحديثة، المتطورة. وينبع وجوده من ثلاثة محاور هي: المرسِل، والمرسَل، والمرسَل إليه. وتأتي هذه المحاور متزامنة مترابطة لا يكاد يفترق أحدها عن الآخر. ومن هذه الوجهة النقدية تمخض هذا البحث، ليدرس النص المعجز في سورة النمل، لكونه نصا ضمَّ أساليب ثرة خصبة من الإعجاز أغنت الخاصية الأسلوبية، فجاء البحث على مدخل، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وكشفٌ بمصادر ومراجع البحث، وقد درس المدخل الحال الأسلوبية لكونها إطار وصفي معني بتوصيف السمات النصية وخصائصه، ومجالات تفوقه. انطلاقا من البنية اللغوية للنص ومروراً بمظاهره التعبيرية وأبعاده الجمالية، وعلاقاته الفكرية والنفسية.

في حين درس المبحث الأول مظاهر الالتفات في سورة النمل، وطرق انحراف النص القرآني من أسلوب إلى آخر؛ بغية التأثير في المتلقي، وتوجهه لإصغاء النص المعجز. وفي المبحث الثاني تطرق البحث لأسلوب التقديم والتأخير في السورة الشريفة، وبين مدى ما يقدمه هذا الباب البليغ من طاقة جمالية وتأثيرية تغني النص وتثير دهشة المتلقي وإعجابه. ودرس المبحث الثالث أساليب التوكيد في سورة النمل، وبين كيف يتمكن هذا الأسلوب من إضفاء الاستقرار في جنان المتلقي، كونه أسلوبا معني بإزالة الشك والريب عن

نفس القارئ. وجاءت الخاتمة واصفة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث. ولقد بذلنا في هذا البحث كلّ ما لدينا من جهد لإحاطة بالموضوع من جميع أطرافه، ولا ندّعي الكمال؛ فذلك لله وحده، ومنه التوفيق.

المدخل: نظرة في ظاهرة الأسلوبية.

الأسلوبية من المناهج النقدية الحديثة التي بزغت في أوائل القرن الماضي، وتطورت فيها الرؤى حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من تطور، والأسلوبية تنطلق من النص، ولهذا تحتاج إلى درايةٍ في تفاعل أجزائه، على مستوى الألفاظ والجمل، لتخرجها من نظامها الداخلي إلى نظام خارجي يتفاعل معه المتلقي عبر خطاب موجه يراعي مستوى المتلقي، وحاله، وعلى هذا تنطلق الدراسة الأسلوبية من الوحدات التركيبية للنص ابتداء من أصغر الوحدات ـ الألفاظ والأصوات ـ وصولا إلى النص الكامل؛ كون النص منظومة سياقية لغوية ينتجه مرسل إلى متلق بوساطة نص، وأي انزياح مقصود في العناصر المكونة للنص يحدث انجذابا وتأثيرا في المتلقي. والانحراف الأسلوبي هو الذي ((يكشف عن تحوُّل في نفسية العصر، تحوُّل شعر به الكاتب، وأراد أن يترجمه إلى شكل لغوي، ولابد أن يكون هذا الشكل جديدا))[1]، ووفق هذا الاتجاه يرى أن الأسلوبية هي الانزياح الذي يحصل في النص الأدبي. والانزياح يتخذ أشكالا وأنواعا مختلفة؛ لان ((جوهر عملية تطبيق مقولة الانزياح إنما هو إجراء مقارنة، فالتطبيق تطبيق مقارن، يضع النص الأدبي ويتأمله لا كشيء في ذاته، وإنما كشيء مرتبط بطريقة معينة بآخر حاضر في الذهن، سواء أكان هذا الآخر متجسدا كنص آخر أم كنمط حقبة معينة سابقة على حقبة النص))[2].

وهناك من ينطلق من فهمه للأسلوبية بأنها تضمن السمة الأسلوبية التي تعود إلى بيئة النص أو الموقف، فيتعامل المحلل الأسلوبي مع كل المزايا اللسانية

بوصفها متضمنة سمات أسلوبية من دون ورود تعبير محايد وتستند النظرة التحليلية ضمن هذا التصور إلى العلاقات بين الوحدات اللسانية وسياقاتها[٣]. ويصب المحلل الأسلوبي اهتمامه على ظواهر من دون أخرى؛ كونها ظواهر متميزة في ذلك النص الأدبي، وهذا الاختيار لا يكون اعتباطيا، وإنما يكون وفق الهيمنة الأسلوبية في طريقة كتابة الكاتب، و((مبدأ الاختيار الذي ينبغي أن يقوم في منهج دارس الأسلوب فهو ذو درجة ثانية، إذ هو عندما يعالج نصا من النصوص إنما يركز الاهتمام على مظاهر دون أخرى من نصيب الظواهر الموجودة في النص، والتي كانت خضعت لاختيار أول. فالدارس يقوم بعملية اختيار ثانية بعد أن يكون صاحب الأثر قام بعملية اختيار أولى))[٤]. واللفظ ضمن سياقه هو الذي يميز الأسلوب فيجعل منه ذات انزياح متميز إذ نراه يفاجئ القارئ بطريقة العرض وكيفية التعامل مع الفكرة التي يريد طرحها وتبنيها. فالأسلوب هو عبارة عن مجموعة انحرافات في السياق وهذه الفرضية هي التي تؤثر في السياق وتولد الجمالية في النص الأدبي، ((فإننا لن نستطيع فهم كيف يكون انحراف ما إجراء أسلوبيا في بعض الحالات ولا يكون كذلك في حالات أخرى؛ لأنه إذا كان التنوع بالقياس إلى المعيار العام ثابتا، إذن يجب أن يكون الأثر نفسه ثابتا))[٥]. والأسلوبية شديدة الصلة باللسانيات التي انطلقت منها بفضل سوسير وتلامذته من بعده؛ فهي جسر اللسانيات إلى تاريخ الأدب على حد تعبير سبيتزر، والأسلوبية تأخذ بنظر الاعتبار النسق الوجداني ضمن السياق اللغوي المكون للنص، فهي أداة بيد الكاتب لإضفاء أفكاره وآرائه وعواطفه في آن.

المبحث الأول

الالتفات في سورة النمل

ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي أن: ((اللَّفْتُ: لَيُّ الشيءِ عن جهته كما

تَقبِضُ على عُنُق إنسانٍ فتَلْفِتُه.....، ولَفَتُّ فلاناً عن رأيه أي صَرفتُه عنه، ومنه الالتفات))[٦]. فهو يشير إلى انتقال الحال من جهة إلى أخرى وصرفها إلى رافد آخر، وقد اقترب ابن منظور من هذا المعنى بقوله: ((لَفَتَ وجهَه عن القوم صَرَفَه والْتَفَتَ التِفاتاً والتَّلَفُّتُ أَكثرُ منه وتَلَفَّتَ إِلى الشيء والْتَفَتَ إِليه صَرَفَ وجْهَه إِليه))[٧]. فلا يفترق عن الخليل في بيانه لمعنى اللفظة اللغوي فهو الصرف والانتقال، والتحول، والعدول من وجه إلى وجه آخر.

وقد أماط اللثام الاصمعي: (ت٢١٦هـ) عن هذا المصطلح متنبهاً إلى هذا الأسلوب من دون بيان جماليته، وقد سأل اسحاق الموصلي: أتعرف التفاتات جرير، فيقول له: ما هي: فينشده:

أ تنسى إذ تودعنا سليمى بعود بشامة سقى البشام

يقول الاصمعي: ألا تراه مقبلا على شعره ثم التفت إلى البشام فتدعى له[٨]. ويرى ابن المعتز أنه: ((انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار الى المخاطبة، وما يشبه ذلك))[٩]. وبذلك يكون قد خصص بابا لهذا الأسلوب موضحا تعريفا له. وللالتفات أهمية في نقل القارئ إلى أجواء النص، والتفاعل معه والتأثير به؛ إذ أن الكلام إذا: ((نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد))[١٠].

ونشهد هذا الأسلوب واضحا في عدد من الآيات الكريمات ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١١]، فبعدما كان الحديث عن أنبياء الله داود وسليمان ومسألة الإلهام الذي انزله الباري عز وجل عليهما والذي يتضمن العلوم، ينتقل الحديث إلى حمد الله على هذه النعمة متضمناً الانتقال من ضمير الرفع المتحرك (نا) الذي

اتصل بالفعل (أوتي) إلى الضمير المتصل بالفعل (قال) وهو (ألف الاثنين)، وهذا العامل يساعد في إضفاء الجمالية الكامنة على النص القرآني، والمتمثل في الانزياح التركيبي الذي يراه جون كوهين، ومن النماذج الأخرى في هذه السورة الكريمة: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١٢]. فالمتلقي حينما يقرأ هذه الآية يشعر بحالة من الانسيابية والتي تتمثل بالانتقال من مكان إلى آخر بدلالة لفظة (حتى) أي أنهم كانوا في مكان أعلى من الوادي فانتقلوا إليه، ويصاحب هذا التنقل الجغرافي انتقالا لغويا يتمثل في تحول الضمائر المشعرة بذلك الانتقال، وهو الفعل (أتى) المتصل بواو الجمع، ثم المغادرة إلى الفعل الماضي المتصل بتاء الإناث الساكنة (قالت)؛ ليبين الباري عز وجل منزلة هذا الكائن الحي الدقيق وهو النملة،ويرى الباحثان أن تاء التأنيث الساكنة تحمل دلالات الضعف، واللين في حال اتصالها بالأفعال ولو أنعمنا النظر في بقية مكونات هذه الآية لوجدنا صورة أخرى انمازت بالجمال ويتمثل ذلك بقوله تعالى على لسان النملة: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ والتي تدل المتلقي على أن المظهر الخارجي لهذا الكائن زجاجي؛ لذا جاء بهذه اللفظة منسجمة مع السياق الذي قبله والذي بعده. وفي العطف المتمثل في قوله: ﴿وَجُنُودُهُ﴾، دلالة على القوة والمنعة والسطوة لما خص الله عز وجل نبيه عليه السلام من سمات التأييد الإلهي.

وفي آية أخرى قال تعالى في وصف ملكة سبأ بلقيس: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، فقد حصل انتقال من ضمير الغيبة المتصل بالفعل الماضي المبني للمعلوم، إلى الفعل المبني للمجهول (قيل) ثم الانتقال إلى ضمير المخاطب المتمثل في (عرشك)، لينزاح أخيرا إلى ضمير الجماعة المتكلمين (نا) المرتبط بالفعل: (أوتي)، بصيغة المبني للمجهول، وهذا

الانزياح عاضده انزياحا دلاليا آخر متمثلا بالضمير (نا) الذي يدل على الجماعة ولكنه في الآية الكريمة خرج إلى معنى التعظيم والتفخيم والعلو، فلم يقصد بـ(أوتينا) إلا نفسه وهو مفرد لكنه لعلو شأنه استعمل هو الأسلوب.

وثمة نمط آخر من الالتفات يتمثل بانتقال الفعل من المضي إلى المضارع، أو بالعكس، في فقرة واحدة، وهذا الأسلوب يعطي بعدا جماليا فضلا عن بعده الدلالي المستوحى من هذا الانتقال. ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[١٣]، فقد كان الحديث في بداية الآية عن نبي الله صالح عليه السلام، وعن ثمود بوساطة الفعل الماضي (أرسل) المتصل بضمير الرفع المتحرك (نا) وقد جاء قبله حرف التحقيق (قد) ليفيد التوكيد، ثم انتقل من هذا الزمن إلى الفعل المضارع المتصل بواو الجماعة (يختصمون) وهو من الأفعال الخمسة. فالمتلقي لأحداث هذا القصص يشعر بالتجدد المستمر في جميع فقراتها وهذا ما خلفه الانتقال الانسيابي في أزمنة الأفعال. فقد دل الانتقال إلى الفعل المضارع في (يختصمون) إلى استمرارية هذا التخاصم بين الفريقين (الخير والشر)، وطول أمده، الأمر الذي قد لا يوحيه لو كانت التراكيب في الفعل الماضي، كقول الباري: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ لأنه يدل على أن التخاصم قد كان في الماضي، وقد انتهى. ونلمس التفات آخر متمثلا في الفعل الماضي (أرسلنا) والفعل الأمر (اعبدوا) الذي اتصل بجماعة المخاطبين، فالانزياح الأول يتمثل في الانتقال بوساطة الفعلين في الزمن، والثاني في الضمير المسند إلى الفعل، ويرى بعض المفسرين أن الالتفات هي سمة من سمات القرآن الكريم لتصغي إليه الأسماع وتبعد السآمة والملل عن المتلقي وذلك من خلال تعدد الأزمنة في فقرة واحدة، وتنوع الخطاب في الفقرة ذاتها، وهذا واحد من أسرار إعجاز القرآن.

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١٤]، فقد

انتقال سبحانه وتعالى من الفعل الماضي في قوله (مكروا، ومكرنا) إلى الفعل المضارع في قوله تعالى: (يشعرون)، ليدل على أن عدم شعورهم مستمر لأمد طويل وهذا متأت من عدم تحملهم المسؤولية على المدى البعيد، وقال لا يشعرون لتميز جنس المخاطبين عن باقي أصناف المخلوقات دلالة على أنهم بشر ولو كانوا بهائم لقال: لا يحسون، فالشعور يقابل الإحساس مع العقل، لكي يتحقق كمال الاتصال بين الآية الأولى والآية الثانية. وقد يصل هذا الكائن البشري إلى حال يكون فيه أسوء من البهائم بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١٥] بينما نجد أن مكرهم منقطع وزائل، فقد جاء بالفعل الماضي الذي يدل على الانقضاء والزوال، وقد قابلهم الله سبحانه وتعالى بسنخ ما يحسنونه من العمل فكانت المقابلة بالفعل الماضي أيضا. مع اختلاف الضمائر المتصلة في الفعلين. حين ان (نا) الضمير المتصل في (مكرنا) يدل على ارتفاع الشأن وسموه، وتعظيم المتكلم، الذي يعود على الباري عز وجل، في حين واو الجماعة في (مكروا)، لا تدل على ما دلت عليه (نا) المتكلم المسندة إليه سبحانه وتعالى. وقد عطفها على صفته الدائمة المتمثلة ب (الخير والإحسان) في الدنيا والآخرة بقوله (والله خير الماكرين)، وهذا تقابل آخر فصفة الماكرين التي كانوا عليها المتحدث عنهم هي صفة الظلم والشر والأعمال الدنيئة، في حين صفات الله سبحانه وتعالى تتمثل بالعدل والإحسان والخير، من اجل كمال البشرية وخيرها.

المبحث الثاني

التقديم والتأخير

يتم التقديم والتأخير عن طريق التراكيب، والتركيب إمّا أن يتكون من

جملة فعلية، وفيها يتقدم الفاعل على الفعل، أو الفاعل على المفعول به. أو يتقدم الفعل على المفعول، أمّا الجملة الاسمية، فيتقدم فيها الخبر على المبتدأ.[١٦]، وقد قال فيه الجرجاني (ت٤٧١هـ): ((وهو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويفضي بك إلى لطيفةٍ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعُه، ويلطُف لديك موقعُه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكانٍ إلى مكان))[١٧]. إذ يشير إلى الغاية الدلاليّة التي يقدّمها هذا الأسلوب، والطاقة الجماليّة التي يرصدها. ويتم التقديم والتأخير لأسباب سياقية، أو أحوال بلاغية تعود إلى طبيعة التعبير، ومن أسبابه عند البلاغيين:[١٨]. وترتبط أهمّيّة أسلوب التقديم والتأخير بالأداء الفنّيّ؛ لأنّ من دونه يتلاشى في بعض الأحيان البعد الإيقاعيّ للآية، المتمثل في الفاصلة القرآنية، ويبتعد الإيحاء الدلاليّ الذي يمنحه هذا الضرب من التصرّف في التركيب عن إشعاعه وتفاعله مع المعنى. ما سيضعه في مصاف البقعة الجرداء الخالية من عطاء الجانب التأثيري. وإتيان الجملة على وفق ما هو مرسوم لها في كتب قواعد اللغة العربيّة سيجعلها أقرب إلى اللغة التفاهميّة التوصيليّة العاطلة عن الانزياح والشعريّة.

ومن أنماط التقديم والتأخير في سورة النمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[١٩]، فقد قدم الجار والمجرور (في المدينة) على اسم كان (تسعة رهط)، ومرد التقديم إلى العناية بالمتقدم والاهتمام به؛ فالمتلقي عندما يقرأ لفظة كان يريد معرفة المكان الذي يتحدث عنه الباري عز وجل، لذا قدم (في المدينة) وأخر تسعة رهط. علما أن المكان وتقديمه سنة من سنن الشعراء الجاهليين عمدوا إليها ليركزوا على ذكريات الأطلال والديار، وقصص البوادي. ولو أخر المدينة وقدم الأفراد، لأراد الاهتمام بالرهط من

دون المكان، الذي جاء معرفا بأل التعريفية، فقد سبق الإشارة إليه في مكان سابق من السورة، فالألف واللام هنا عهدية يعرفها المتلقي، وكان الحديث منصبا عليها، لذا كان تقديمها مطلبا دلاليا مهما.

ومن هذا الصنف قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢٠]، والتقديم في الآية الكريمة حصل بتقديم خبر إن على اسمها الذي ارتبط بلام التوكيد المزحلقة، وجاء هذا التقديم لتكثيف التوكيدات في الآية بعد (إن)، واللام، وقد أفادتا التوكيد فضلا عن التقديم والتأخير. علاوة على ذلك نلمس بروز الآية وظهورها، قد حدث بعد هلاك من كان يسكن البيوت، التي كانت عامرة بأهلها. فالمنعم النظر في هذه الآية الكريمة يستنتج تتالي الأحداث التي تنسجم مع مستويات النص الفنية، والتي تستوعب مرتكزات الحدث وزيادة. وقد أشار الله العزيز الحكيم باسم الإشارة الذي يستعمل للقريب (تلك)، دلالة على مواكبة الحدث للمخاطبين، وتأكيدا آخر على صحة القصة التي ترويها السورة الكريمة.

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[٢١]. فقد أخر اسم كان المصدر المؤول من أن والفعل: (أن قالوا)، وقدم خبر كان (جواب قومه)، ليفيد أن رأيهم كان مجتمعا إلى إخراج لوط، فلم يشذ عن هذا الرأي أحد، ولهذا تم التوكيد بوسائط متعددة التقديم والتأخير، وأسلوب النفي (ما) والاستثناء (إلا)، ولو كان الجواب مبشرا ويحمل علامات البشارة لما أخر اسم كان وذلك أن من سمات المتلقي تقديم الأشياء السارة التي تحمله على الدهشة والعجب فجاءت الآية في هذا المضمار لتأخر الوقائع التي حملت الأخبار السيئة متمثلة بفعل الأمر (أخرجوا) الذي اسند إلى واو الجمع دلالة على الزجر والتقريع والإلزام بالخروج، وقد جاء

تعليل قوم لوط لإخراجه من قريتهم حاملا عدولا فكريا، فسبب الإخراج هو لأنهم أناس يتطهرون، وهذا السبب ليس مما يعاب حتى يكون جزاءه الإخراج، ولكن نفوسهم المنغمسة في الآثام هي التي سوغت الحدث فقلبت الحقائق وأصبح في نظرهم الحق باطلا والباطل حقا. وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٢٢]، وذكر السبب والمسبب من تقنيات الشعرية، التي تزيد من جمال الخطاب وتثبت إعجاز القائل؛ إذ استبطن ما تكنه نفوسهم من أسرار كانوا يكتمونها.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[٢٣]. في الآية الكريمة يعدد أسلوب التقديم والتأخير فقد قدم مصدر الرحمة النمو (من السماء) على المفعول به (ماء)، وكان الاهتمام بالدرجة الأولى على النعم التي أسداها الله سبحانه وتعالى على عباده فقد (لكم) الضمير الذي يشير إلى خلقه الذي سبق بلام الاستحقاق، وهذا يدل على منزلة المستحق له، فضلا عن ذلك نلمس قوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ﴾ وهذه دلالة أخرى على عظم شأن الخالق تعالى، وقدرته التي سخرها ويتمثل ذلك بقوله (أنزل) ولم يستعمل (نزل) فلو عدنا إلى المعجم العربي لوجدنا أن الفعل (أنزل) يختلف دلاليا على الفعل (نزل) وذلك بسبب دخول همزة التعدية عليه، فمعنى نزّل يعني التنزيل التدريجي للشيء، ومصدرها التنزيل، وأما (أنزَل) فتعني نزول الشيء دفعة واحدة وهذه دلالة قوية على كرمه عز وجل بحيث يعطي بحالة مطلقة بعيدة على المحدودية والمدى في صفة ثابتة مطلقة. وثمة تقديم وتأخير في الآية الكريمة في قوله ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾، فقد قدم الجار والمجرور على المفعول به، لان حرف الجر يحمل ضميرا (الهاء) يعود على لفظ الجلالة الله سبحانه وتعالى، فكان

التقديم يخدم الدلالة التي تريد ان تشير إلى إنعام الباري بخلقه وفضله غير متناهي، وقد وصف سبحانه الحقائق بأنها ذات بهجة فاسند صفة العاقل إلى غير العاقل فحولت نمط التركيب القرآني إلى غير المألوف؛ وذلك لأنها أخرجته من الممكنات إلى المستحيلات. وهذا يثير الدهشة لدى المتلقي، وينقل به الحال إلى البحث عن مواضع الإعجاب الفني في النص.

المبحث الثالث

التوكيد في سورة النمل

للتوكيد غاية تتعلق في ترسيخ المعنى في نفس المتلقي واستقراره وتقويته، وإزالة الريب والشك عنه،وهو مايدخل التوكيد اللفظي في باب التكرار وجاء في لسان العرب: ((الكَرُّ الرجوع يقال كَرَّه وكَرَّ بنفسه يتعدّى ولا يتعدّى والكَرُّ مصدر كَرَّ عليه يَكُرُّ كرًّا وكُروراً وتَكْراراً عطف وكَرَّ عنه رجع.... وكَرَّرَ الشيء وكَرْكَره أعاده مرة بعد أُخرى والكَرّةُ المَرَّةُ والجمع الكَرَّات ويقال كَرَّرْتُ عليه الحديث وكَرْكَرْتُه إذا ردّدته عليه وكَرْكَرْتُه عن كذا كَرْكَرةً إذا رَدَدْته والكَرُّ الرجوع على الشيء ومنه التَّكْرارُ... [و] كَرَّرْتُ الشيء تَكْرِيراً وتَكْرارا))[٢٤]. فالتكرار يحمل معاني الكر والرجوع والعف والإعادة مرة أثر مرة والترداد وغيرها من المعاني المرادفة لهذا المفهوم الذي ينصب حول فكرة تقوية المعنى وإزالة الشك. وللتوكيد أساليبه التي منها: التكرير، والأدوات الخاصة بالتوكيد والحروف التي يعتبرها النحاة زائدة وأسلوب التقديم والتأخير، والقسم.

ونجد أسلوب التوكيد كثير في سورة النمل، ومنه التوكيد المعنوي بأجمع، إذ قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢٥]، فنجد ان التوكيد في أجمع قد حقق فائدة قد لا تحققها (كلّ) لو قال تعالى: (وقومهم كلهم)، فقد يكون التدمير لهؤلاء القوم قد حصل عليهم جميعا،

ولكن بزمان متفرق؛ أي ان تدميرهم كان مجتمعا متفرقا، أما في (أجمع)، فلا يكون إلا حال كونهم مجتمعين في آن واحد. وهذا ما يصور قدرة الله تعالى وعظمته وسطوته، بصورة واضحة لا تقبل الشك، وان كان بعضهم لا يقبل هذا التفريق ويعدهما (كل وأجمع) بمثابة التكرار اللفظي بالمرادف[٢٦]. وقد دعمت الآية الشريفة بمؤكد آخر هو (أن) الحرف المشبه بالفعل الذي يفيد التوكيد، لان الآية تتطلب من هذه التوكيدات، لإنذار الناس، والحث على أخذ العبرة والموعظة من الأمم السابقة. وقد تكرر الضمير (هم) مرتين، في قوله تعالى: ﴿دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾، فالـ (هم) الأولى ترجع إلى رؤوس القوم الذين يمكرون مكرا شديدا، في حين تشير (هم) الثانية إلى الإتباع ومن يسير على خطا رؤوس المكر.

وثمة توكيد لفظي في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢٧]. وقد تمثل في الاستعارة التي بثتها الآية من جراء المقابلة التي عقدتها مقابل فعلهم الذي كانوا يعملونه، في حين جاءت الفقرة الأخيرة في الآية الكريمة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، تأكيدا على هذه الاستعارة، وتأكيدا على تدميرهم واستئصالهم على بكرة أبيهم، فليس ثمة ترشيح أو تجريد للاستعارة في هذا المقطع، وإنما هو للتوكيد.

وثمة توكيد يحصل بالحال، فهو يؤكد الحدث لاشتمال الفعل على معناه؛ فكأنه قد أعيد مرتين فهذا النوع من التوكيد ملحق بالتكرير على هذا الأساس، ويكون الحال مؤكدا إذا كان اسما مقررا لمضمون ما قبله. وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٢٨]، فقد اكدت الجملة الحالية: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ما سبقها من كلام (لنخرجنهم - اذلة) وهي تحمل في طياتها معنى الاصغار.

وغالبا ما يأتي التوكيد بأداتي التوكيد (إنَّ وأنَّ)، أما (إن) فلها غالبا صدر الجملة ووظيفتها توكيد الحكم الذي كان شديد الإنكار، اما إذا كان الإنكار أشد جلب للجملة اللام وحدها أو اللام والقسم. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٢٩]، فقد اشتركت اللام مع (إنَّ) من أجل تكثيف التوكيد، وقد أخرت اللام لزيادة الاستحسان، لأنهما في حكم واحد هو التوكيد فلا يستحسن أن يجمعا متجاورين؛ ولهذا دخلت اللام في خبر (إنَّ) الذي هو (تلقى)، وقد فصل بينهما الضمير (الكاف) الذي جاء في محل نصب اسم إن. وجاء التوكيد ب (إن) أيضا في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[٣٠]، إذ نلحظ أن الآية الكريمة قد وكِدَت بـ (إنَّ واللام)، فضلا عن ضمير الفصل (هو)؛ لزيادة التوكيد، وقد تدخل اللام المؤكدة على اسم (إن) من قبيل قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣١].

وتأتي (أنَّ) مؤكدة معنى الجملة، إلا أنها تغير معنى الجملة إلى الإفراد، لأنها تسبك بتقرير مصدر مفرد، ولا يعتبر بعض الباحثين (أنَّ) المفتوحة من أدوات التوكيد، فهي عنده ((خلو من التأكيد وإنما هي واصلة))[٣٢]، ودليله على ذلك أنها إذا دخلت على أفعال الظن والشك، فهي لا تفيد التوكيد لان الظن رجحان أحد الطرفين، ولا يتفق الظن والشك مع التوكيد في حال.

ومن أدوات التوكيد أيضا (لكنَّ) من قبيل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٣٣]، ولكن حرف استدراك ويأتي أيضا للتوكيد، ولما أراد في الآية الكريمة ان يقرر حقيقة ربما ينكرها بعض الجاهلين،إذ كيف تكون الأغلبية غير شاكرة، ومنكرة لأنعم الله، والحقيقة أن القرآن الكريم قد كرر هذا المبدأ القرآني في أكثر من سورة شريفة، ليؤكد على أمر غاية في

الخطورة مفادها انه ليس اجتماع الناس على شأن من الشؤون ليس دليلا على صحة هذا الشأن، ولما كان هذا الأمر قابلا للإنكار؛ لان العقل البشري المحدود ربما يرى خلاف هذا، فجاءت الآية مؤكدة لهذه الحقيقة من قبيل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣٦]، وغيرها من الآيات التي تؤكد الحقيقة نفسها.

ومن أساليب التوكيد المتنوعة التوكيد بالجملة الاعتراضية التي تفيد التوجيه إذا جاءت ضمن سياق الشك وعدم اليقين، وتدخل الجملة الاعتراضية بين كلامين متصلين في المعنى، فتكون بين الفعل والفاعل، أو بين المبتدأ وخبره، أو بين القول ومقوله، وغيرها من الحالات، وهي لا محل لها من الإعراب، وقد ادخلها البلاغيون في باب الإطناب. وقد وردت الجملة الاعتراضية في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[٣٧]، فقد دخلت الجملة الاعتراضية بين قول بلقيس (إن الملوك...) و(وإني مرسلة..)، ومما يثبت أن هذه الجملة الاعتراضية للتوكيد مجيء التوكيد في سياقها بوساطة أداة التوكيد (إن)، ثم إن الجملة الاعتراضية كررت المعنى السابق لها من دون اللفظ فقد أكدت قوله تعالى: (أفسدوها - جعلوا أعزة أهلها اذلة)، فبلقيس في معرض إنكار لوقفها وشك من قبل محكومها ولاسيما أن رأيهم كان هو عدم الاستسلام لنبي الله سليمان عليه وعلى نبينا وآله السلام، إذ قال الله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[٣٨]، فيبدو ان رأيهم كان متوجه نحو المواجهة والقتال؛ ولهذا احتاجت لأكثر من مؤكد لتدلل صحة رأيها، بأن الملوك هذا ديدنهم وعادتهم المستمرة التي لا تكاد تنفك عنهم، ولاسيما أنها صاحبة خبرة بأحوال الملوك إذ أنها كانت تسكن في بيت الملك القديم.

النتائج:

وبعد هذه الرحلة المثمرة في النص القرآني يمكن إجمال النتائج الآتية:

١- تعد الأسلوبية من المناهج التي تنطلق من النص ابتداء من أصغر أجزائه، والى النص بصورة كاملة، من أجل تأشير مواضع الانزياح والإبداع فيه، وتأشير مواطن التأثير فيه، ومدى توافقه والرؤى التي يريد التعبير عنها، وهو بهذا يعتبر من المناهج المعاصرة التي شكلت نقطة تحول في النقد بصورة عامة.

٢- شكلت أسلوبية الالتفات في سورة النمل ظاهرة بارزة في السورة، وكانت ذات تأثير جمالي استحق الإشارة؛ إذ له دور في تنبيه السامع، ولفت إصغائه، إذ نلحظ الانزياح التركيبي في آيات عديدة من السورة بهذا الأسلوب.

٣- كان لأسلوبية التقديم والتأخير دور بارز في السورة؛ لما قدمه من جمالية وإبداع، وقد تم هذا الأسلوب بطرائق متعددة، منها: تقديم الجار والمجرور على أصل بينة الجملة، أو تقديم المفعول على فاعله، أو تقديم الخبر على المبتدأ، وقد بين البحث أن لأسلوبية التقديم والتأخير فائدة دلالية ونغمية تمثلت في الفاصلة القرآنية، فكان له دور في إغناء السياق وإيصال بلاغية النص إلى حد الإعجاز.

٤- تمثل دور أسلوبية التوكيد في السورة بترسيخ حكم النص القرآني، وإزالة الشك عن ذهن المتلقي، وقد تعددت أساليب التوكيد في السورة الكريمة، فقد حصلت في ألفاظ وأدوات وأساليب مختلفة خدمت دلالة النص، وكان وجود، أو عدم وجود التوكيد في الآية يجري ضمن سياق محكم إعجازي، خاضع لقصدية عالية المستوى.

هوامش البحث

(١) اتجاهات البحث الأسلوبي: ٦١.
(٢) البنى الأسلوبية: ٤٣.
(٣) ظ: الأسلوب، د. سعد مصلوح.
(٤) في منهجية الدراسة الأسلوبية: ٢٢٣- ٢٢٤.
(٥) معايير تحليل الأسلوب: ٥٤.
(٦) كتاب العين: مادة (لفت).
(٧) لسان العرب: مادة (لفت).
(٨) ظ: حلية المحاضرة: ١/ ١٤٧.
(٩) البديع: ٥٨.
(١٠) الكشاف:٥٦/١.
(١١) النمل: ١٥.
(١٢) النمل : ١٨.
(١٣) النمل : ٤٥.
(١٤) النمل: ٥٠.
(١٥) الأعراف: ١٧٩
(١٦) ظ: نحو المعاني: ٢٦.
(١٧) دلائل الإعجاز: ١٠٦.
(١٨) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٣٩٥/١.
(١٩) النمل: ٤٨.
(٢٠) النمل: ٥٢.
(٢١) النمل: ٥٦.
(٢٢) البقرة: ١٠
(٢٣) النمل:٦٠
(٢٤) لسان العرب، مادة (كرر).
(٢٥) النمل/٥١.
(٢٦) أسلوب التوكيد في القرآن الكريم: ٧١.
(٢٧) سورة النمل: ٥٠.
(٢٨) النمل: ٣٧.
(٢٩) النمل:٦.

(٣٠) النمل: ١٦
(٣١) النمل:٥٢.
(٣٢) أسلوب التوكيد في القرآن الكريم: ١٣٨.
(٣٣) النمل:٧٣.
(٣٤) البقرة:١٠٠.
(٣٥) آل عمران:١١٠.
(٣٦) المائدة:١٠٣.
(٣٧) النمل:٣٤- ٣٥.
(٣٨) النمل:٣٣.

قائمة المصادر والمراجع

خير ما نبتدئ به القرآن الكريم.

- اتجاهات البحث الأسلوبي (مقالات مترجمة)، دار العلوم، السعودية، ط١٩٨٥،١.
- أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، د. محمد حسين أبو الفتوح، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٥.
- الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د.فتح الله أحمد إسماعيل، دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠٨.
- البديع في نقد الشعر وآدابه، عبد الله بن المعتز (ت: ٢٩٦هـ)، تحـ: اغناطيوس كاراتشوفسكي، مطبعة باب عيسى الحلبي، ط١، ١٩٤٥.
- البنى الأسلوبية دراسة في (أنشودة المطر) للسياب، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٢.
- حلية المحاضرة، أبو علي الحاتمي تح: هلال ناجي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٩٧٨.
- دلائل الإعجاز: تأليف: الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ت: (٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، منشورات: مكتبة الخانجي. الشركة الدولية للطباعة والتوزيع، ط٥، القاهرة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م

- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت: ١٧٠هـ)، تحـ: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ).
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت٥٣٨هـ)، تحـ: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي،بيروت،لبنان،(١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
- لسان العرب، ابن منظور، (ت:٧١١هـ)، اعتنى بتصحيحها: أمين محمّد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيديّ، دار إحياء التراث العربيّ - بيروت، ط٣، (د.ت).
- معايير تحليل الأسلوب، مايكل ريفاتير، تر: د. حميد لحمداني، منشورات دراسات سال، دار النجاح الجديد، المغرب، ط١، ١٩٩٣.
- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: للباحث العلامة: محمد علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د.رفيق العجم، تحقيق: د.علي دحروج، منشورات: مكتبة لبنان للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت- لبنان، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- نحو المعاني: أحمد عبد الستار الجواري، منشورات: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ط٢، بغداد، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- ندوة اللسانيات واللغة العربية، مقال: في منهجية الدراسة الأسلوبية، د. محمد مهدي، تونس، ١٩٧٨.